الوحدة الأولى: مدخل مفاهيمي إلى الأنثروبولوجيا.

يجمع الباحثون على أن الأنثروبولوجيا علم حديث العهد إذا ما قيس ببقية العلوم الأخرى، حيث لم تستقل الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، ورغم حداثتها إلا أنها حجزت لنفسها مكانة هامة بين العلوم اليوم، نظرا لما تثيره من إشكاليات وتساؤلات مثيرة، ولما تتمتع به موضوعاتها من جاذبية وإغراء.

أولا- مفهوم الأنثروبولوجيا:

مما لا شك فيه أنه سبق لك وأن قرأت أو سمعت عن مصطلح الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان، سواء من خلال الكتب والمقالات أو من خلال مشاهداتك وتصفحك لوسائل الإعلام أو وسائط التواصل الاجتماعي أو مواقع الإنترنت، وحتى وإن لم تسمع عنه من قبل، فلابد أنك قبل ولوجك لهذا الدرس قد شاهدت برنامج المقرر الدراسي الخاص بك واكتشفت هذا المصطلح، فهل سبق وأن تساءلت وبحثت عن **ماذا تعني الأنثروبولوجيا؟**... هذا ما سنحاول الإجابة عنه بين ثنايا هذا المحور الأول، لنأخذك في جولة سريعة تزيل عنك الغموض الذي يمكن أن يغلف هذا المصطلح ونحاول التعمق معك أكثر إن كانت لديك فكرة سابقة عنه.

1/ المدلول اللغوي للأنثربولوجيا:

كلمة أنثروبولوجيا هي كلمة إنجليزية "**Anthropology**" أو فرنسية "**Anthropologie**" يونانية الأصل والاشتقاق مكونة من شقين أو مقطعين، الشق الأول "**Anthropos**" ومعناه **الإنسان**، الشق الثاني "**Logos**" ومعناه **علم** أو **دراسة** أو **خطاب** أو **بحث**؛ فعند جمع معنى الشقين يصبح معنى مصطلح الأنثروبولوجيا هو "**علم الإنسان**" أو العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان.

2/ المدلول الاصطلاحي للأنثربولوجيا:

كغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، لا نجد تعريف واحد وموحد للأنثروبولوجيا، بل نجد العديد من التعاريف والمفاهيم التي تختلف باختلاف المدارس الفكرية وباختلاف زاوية النظر لهذا العلم، فالأنثروبولوجيا أو علم الإنسان في أبسط تعريف هو العلم الذي يهتم بالدراسة العلمية للإنسان، لكن إذا أخذنا بهذا التعريف فهل هو كافي لإزالة اللبس والغموض؟ فمختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية تهتم بدراسة الإنسان ولكن لكل علم زاوية معينة يدرس من خلالها الإنسان، إذن فما هي الزاوية التي تهتم من خلالها الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان؟

– **المعنى الفلسفي للأنثروبولوجيا:** يصفها على أنها علم وصفي للإنسان، علم يهتم بدراسة الإنسان من حيث قيمه (قيم جمالية، دينية، أخلاقية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية) ومكتسباته الثقافية.

– دراسة الإنسان وأعماله، أي منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان، فالأنثروبولوجيا هي أكثر العلوم التي تدرس الإنسان وأعماله شمولًا على الإطلاق. فهي تدرس الإنسان كعضو في المملكة الحيوانية من جهة، وتدرس سلوكه كعضو في المجتمع من ناحية أخرى، ولا تقتصر على دراسة مجموعات معينة من البشر أو حقب معينة من الحقب التاريخية، بل تهتم بالأشكال الأولى للإنسان وسلوكه بنفس درجة اهتمامها بالأشكال المعاصرة، فهي تدرس تطوّر البشرية ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وجدت عنها أية سجلات أو بقايا.

دراسة الإنسان (البشر) في أي مكان في العالم وفي أي زمان (اليوم، بالأمس، وعبر التاريخ)/ محاولة فهم الصورة الكبرى للسؤال: ماذا يعني أن تكون إنسانًا؟

– وتحاول الأنثروبولوجيا كشف وتوصيف المعايير الفيزيقية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى، والمعايير التي تميز بين الأنواع العديدة داخل الأسرة البشرية نفسها، وتركز على الدراسة المقارنة بين الحضارات أو الثقافات من خلال الكشف على أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين الثقافات، وتحاول معرفة واكتشاف القوانين والمبادئ التي تحكم تكوّن المجتمعات البشرية والثقافات الإنسانية وتطورها.

– وتعرف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنّها "علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً؛ أي أنّ الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنّما تدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً بطبعه، يحيا في مجتمع معيّن له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين.

– يمكن النظر للأنثروبولوجيا على أنها علم إنساني اجتماعي متكامل، فهي تشمل بعدا اجتماعيا– ثقافيا فضلا عن كونها تضم بعدا بيولوجيا– سيكولوجيا، كما أنها تعتمد مدخلا تطوريًا– تاريخيا فضلا عن اعتمادها مدخلا مقارنا، إضافة إلى أن الأنثروبولوجيا تدرس كل من الماضي والحاضر كما تتناول المجتمعات البدائية (primitive) والتقليدية (traditional) بالإضافة إلى المجتمعات الحديثة أو العصرية (modernity).

– يقول **كلايد كلو كهون** في كتابه "**مرآة الإنسان**": "في أوائل القرن العشرين أطلق على العلماء الذي اشتغلوا بدراسة الأوجه غير العادية لتاريخ الإنسان اسم علماء الإنسان. لقد كانوا يبحثون عن أبعد أجداد الإنسان، وعن تروادة هوميروس، وعن الموطن الأصلي للهنود الأمريكيين، وعن العلاقة بين ضوء الشمس الساطع ولون البشرة، وعن أصل العجلة ودبوس الأمان وصناعة الخزف. وكانوا يريدون معرفة كيف شق الرجل الحديث طريقه، ولماذا يحكم شعبًا ما ملك، في حين يحكم شعبًا ثانيًا مجموعة من الشيوخ وشعوبًا أخرى جماعة عسكرية، ولا يوجد شعب –إلا نادرًا– تحكمه النساء. ولماذا تنتقل الملكية في بعض الشعوب متتبعة قرابة الذكور وفي بعضها الآخر تتبع قرابة الإناث وفي نوع ثالث من الشعوب يرث

الذكور والإناث معًا. ولماذا يمرض بعض الناس ويموتون عندما يظنون أنهم سُحِروا على حين يسخر آخرون من هذه الفكرة؟ كانوا يبحثون عن الكليات أو المبادئ العامة في الحياة الإنسانية وفي الأخلاق الإنسانية. ولقد برهنوا على أن الناس في جميع القارات والأقاليم –من الناحية الفيزيائية– أكبر في درجة تشابههم منهم في درجة تفاوتهم، وقد اكتشفوا الكثير من المتشابهات بين العادات الإنسانية، وبتعبير آخر فقد أصبح علم الإنسان علم المتابهات والمفارقات الإنسانية".

– علم الإنسان يتناول بالدراسة الجانب البيولوجي للإنسان باعتباره كائنا عضويا، فيصف تركيبته العضوية في الحاضر والغابر، ويقارن بين الخصائص الطبيعية لإنسان اليوم مع إنسان الحضارات القديمة، وبين السلالات البشرية المختلفة، كما يقارن بين خصائص الإنسان وتركيبته البيولوجية وبين خصائص وتركيبة باقي الكائنات الأخرى. / كما يركز من جانب آخر على البناء الاجتماعي، محاولًا فهم مختلف البنيات المكونة له والتي تتجسد في مختلف النظم والمؤسسات الاجتماعية كنظام الأسرة والدين والقرابة والزواج...الخ، وهذه النظم المشكلة للبناء الاجتماعي هي الموضوع الأساسي للأنثروبولوجيا في جانبها الاجتماعي، أما الجانب الحضاري (الثقافي) فهو يشير إلى محاولة فهم ثقافة الشعوب بوصفها ومقارنة بعضها بالبعض الآخر.

فأغلب التعاريف تجمع على أن الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان دراسة شاملة من زوايا ثلاث، الزاوية البيولوجية من خلال البحث عن أصل الإنسان وتطوره من الناحية العضوية والبيولوجية ومقارنته مع بقية الكائنات المشابهة وغير المشابهة له، الزاوية الاجتماعية باعتباره كائنًا اجتماعيا يعيش في جماعة أو مجتمع يتفاعل معهم ويؤثر فيهم ويتأثر بهم، والزاوية الثقافية باعتباره الكائن الوحيد القادر على صنع وإبداع الثقافة ونقلها بين المجتمعات والأجيال المتعاقبة.

3/ التسميات المختلفة للأنثربولوجيا:

– يعود أول استعمال لمصطلح قريب من الأنثروبولوجيا على الإطلاق للفيلسوف اليوناني أرسطو الذي استخدم كلمة "**الأنثروبولوجوس**" والذي يعني في اللغة اليونانية الكلاسيكية "الثرثرة"، فيما يذهب العلامة الإنجليزي "هادون" إلى أن أرسطو قد استخدم المصطلح للدلالة على الشخص الذي يتحدث عن نفسه.

– وفي عام 1501 ظهر هذا المصطلح كعنوان لكتاب المفكر Hundt الذي تكلم فيه عن خصائص جسم الإنسان من الناحية التشريحية، وظهر هذا الاصطلاح أيضا في كتاب "L'Anthropologia" للمفكر Copella سنة 1533، يدرس الكتاب الصفات الشخصية الفردية، وظهر اصطلاح أنثروبولوجيا لأول مرة في اللغة الإنجليزية سنة 1655 في كتاب غير معروف مؤلفه بعنوان "Abstracted ,Anthropology"

وموضوعه الطبيعة البشرية، وأخذ استعمال المصطلح ينتشر تدريجيًا إلى أن أصبح له مفهوم واضح في القرن التاسع عشر.

– من جهته، يذكر الباحث الفرنسي **جان بواريه J. Poirier** أن كلمة الأنثروبولوجيا ظهرت أولا في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن 18 لتعني **دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان**، وحسب بواريه أيضا فإن عالم الطبيعة الألماني "**جوهان بلومينباخ**" هو أول من أدخل كلمة الأنثروبولوجيا في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه المعنون بـ "**عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر**" الصادر سنة 1795، ويذكر بواريه أيضا أن الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط** أشاع استخدام هذا المصطلح بعد صدور كتابه "الأنثروبولوجيا من منظور علمي".

– ويعود أصل كلمة أنثربولوجيا في اللغة العربية إلى النقل الحرفي للكلمة من اللغتين الفرنسية والانجليزية، وقد جاء هذا النقل الحرفي تفاديًا لأي لبس أو غموض قد يشوب العلم أو أي تشابه أو تداخل مع غيره من العلوم؛ فيما تفضل بعض المراجع تعريب المصطلح وترجمته إلى اللغة العربية، فنجدها تستعمل مصطلح **علم الإنسان** للدلالة على الأنثروبولوجيا.

– فالشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية تطلق تسمية علم الأنثروبولوجيا على علم الإنسان وأعماله، بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنجليزية على دراسة الخصائص الجسمية للإنسان. ففي إنجلترا مثلا، يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص إلى دراسة الشعوب البدائية. أما في أمريكا، فيرى العلماء أن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة. في حين أن علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية (البيولوجية).

– إن ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة الأنثروبولوجيا الثقافية يصطلح الفرنسيون على الإشارة إليه بالإثنولوجيا أو الإثنوجرافيا في بعض الأحيان، وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع. وفي ألمانيا، يقصد بالأنثروبولوجيا الدراسة الطبيعية للإنسان، بينما تستخدم كلمة إثنولوجيا للإشارة إلى علم الشعوب.

– بينما في الاتحاد السوفياتي ومعه أغلب دول شرق أوروبا، يشيع استخدام مصطلح الإثنوجرافيا، ومن أهم مجالات اهتمامها دراسة التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدائية.

– وكما هو الحال في أوروبا، تتنوع مسميات الأنثروبولوجيا في العالم العربي، ففي مصر مثلا يأخذ البعض بالتسمية البريطانية أي الأنثروبولوجيا الاجتماعية، بينما يسميها البعض الآخر بالأنثروبولوجيا الثقافية (تأسيا بالمدرسة الأمريكية)، بينما يدعو البعض الآخر إلى استخدام مصطلح الإثنولوجيا تفاديًا للبس والغموض والمصطلحات المزدوجة الأخرى.

– كما نجد من يستعمل مصطلح **الأناسة** أو **علم الأناسة** الذي يستعمل للدلالة على دراسة الإنسان بصفته كائن ينتمي إلى العالم الحيواني، وباعتباره الوحيد من بين هذه الكائنات القادر على صناعة الثقافة وإبداعها، وقد تطور هذا المدلول ذو الاستعمال الفرنسي إلى مفهوم واسع يشمل دراسة كل ما له علاقة بالتنوع في الثقافات الإنسانية القديمة والمعاصرة؛ "والدلالة الأصلية لكلمة الأناسة تطلق على المعرفة لكائن حي يتميز بالمشي قائمًا (غير مكب)، وتشمل هذه المعرفة عناصر كونية وعناصر خصوصية ذات صلة بالتنوع الثقافي والتاريخي، إضافة إلى ما سبق يوظف البعض مصطلحي **النياسة والأناسة** في مرحلة تفسير المعطيات الأنثروبولوجية ومعرفة الإنسان معرفة إجمالية.

عالم التاريخ الطبيعي السويدي لينوليوس أول من وضع تصنيف للنباتات والحيوانات في القرن 18 وضع ضمنها الإنسان في قائمة مع الحيوانات وعُدَّت دراسة الإنسان فرع من العلوم الطبيعية.

ثانيا- الأنثربولوجيا والمفاهيم القريبة منها "الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا و الإثنوغرافيا":

يتداخل ويتشابك مفهوم الأنثروبولوجيا مع بعض المفاهيم الأخرى إلى حد يصعب فيه التفريق بينها لدى الكثير من الطلبة والباحثين، وسنحاول فيما يلي فك خيوط هذا التشابك وإزالة الغموض الذي يحيط بهذه المفاهيم.

1/الإثنوغرافيا:

– كلمة يونانية الأصل مركبة من لفظة **إثنوس** "**Ethnos**" وتعني الأقلية أو الشعب أو القبيلة أو العشيرة، ولفظة غرافس "**Graphes**" وتعني الوصف والتصوير ليصبح المعنى الدراسة الوصفية للشعوب.

– و"يذكر بواريه أنه ربما كان أول استخدام لمصطلح الإثنوغرافيا كان عام 1810 تقريبًا، عندما حاضر المؤرخ الألماني بارتولد نيبور بجامعة برلين بألمانيا.

– والإثنوغرافيا (الإثنوجرافيا) تعني في مدلولها الاصطلاحي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة.

– يعرف قاموس الأنثروبولوجيا لشاكر سليم الإثنوجرافيا ويكتبوها "إثنوكرافيا" على أنها علم وصف حضارة شعب معين، يرسم صورة دقيقة لطرائق معيشته ونظمه وعلاقاته الاجتماعية.

– فالإثنوغرافيا تسعى إلى رصد المعلومات من خلال **الدراسة الوصفية** للمجتمعات والثقافات المختلفة، وعادة ما يتم البحث الإثنوغرافي على مجتمعات محلية صغيرة الحجم غالبا. وعادة ما تقتصر الإثنوغرافيا في دراساتها على الناحية الوصفية دون تقديم تفسير أو تحليل لها.

2/الإثنولوجيا:

– كلمة يونانية الأصل كذلك مركبة من لفظة **اثنوس** "Ethnos" أي الأقلية أو الشعب أو القبيلة أو العشيرة، ولفظ **لوغوس** "Logos" ويعني الدراسة أو العلم ، ليصبح المعنى هو **علم الشعوب**. وهناك من يسميها أيضا أناسة الثقافة أو علم السلاليات أو النياسة.

– ويذكر بواريه أن أول استخدام للمصطلح كان سنة 1787 على يد الفيلسوف الفرنسي دي شافان في كتاب له بعنوان "مقال في التعليم العقلاني مع مشروع جديد".

– وتعرف على أنها "الدراسة التاريخية والمقارنة للثقافات أو الشعوب، تمثل السلالة وحدة الدراسة الأساسية فيها، وتعرف أيضا على أنها الدراسة التحليلية والمقارنة للسلالات والشعوب، وموضوعها هو دراسة منتجات الإنسان سواء المادية أو غير المادية، إضافة إلى دراسة العوامل التي تحدد عمليات استعارة هذه المنتجات وانتشارها بين الشعوب.

– فعلى عكس الإثنوغرافيا التي تهتم بالدراسة الوصفية فقط، تذهب الإثنولوجيا أبعد من ذلك من خلال اهتمامها بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوغرافية، بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتطورها وتنوعها، فالإثنوجرافيا والإثنولوجيا مرتبطان ويكمّل أحدهما الآخر.

– في بداية الأمر، كانت الإثنولوجيا تهتم بوصف وتصنيف الصفات الجسمية المتشابهة والمتباينة للسلالات البشرية، وظل هذا الاستخدام سائدًا حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لينتقل بعدها من دراسة السلالات البشرية أساسًا إلى التركيز على الثقافات والحضارات الإنسانية من جهة وإلى دراسة النظم الاجتماعية للمجتمعات غير الأوروبية من جهة أخرى.

– وقد اهتمت الإثنولوجيا في بداياتها **بدراسة المجتمعات** "**البدائية**" **أو ما يعرف بالآخر**، حتى هناك من أطلق عليها تسمية علم دراسة الآخر، وجعل البعض يتساءل هل ستختفي الإثنولوجيا مع زوال البدائيين في النصف الثاني من القرن العشرين.

– تعرف الإثنولوجيا على أنها **علم الشعوب وثقافاتهم وتواريخ حياتهم**، فتهتم برصد العلاقات المتبادلة بين الشعوب وبين الكائنات البشرية وثقافاتها، والعلاقات المتبادلة بين الثقافات المختلفة، وتقوم على **الدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الإثنوغرافية** بغرض الوصول إلى تعميمات حول مختلف النظم

وأصولها وتطورها وتنوعها. وعليه فإن الإثنولوجيا تستفيد عمليا من البيانات التي تزودها بها الإثنوغرافيا، ليقوم الباحث الإثنولوجي بعد ذلك بتصنيف الحضارات والثقافات في مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة وتحليلها، واستخلاص المبادئ منها، فهدف الإثنولوجي هو الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية ولظاهرة التغير الحضاري والثقافي.

- ورغم وضوح مفهوم **الأنثروبولوجيا** إلا أن استخداماته تختلف من بلد لآخر ومن مدرسة لأخرى، لذلك قد يجد الباحث تداخلات بينه وبين المفاهيم سابقة الذكر. ويمكن إيضاح ذلك بإيجاز في النقاط التالية:

✓ ففي أمريكا نجد استخدامين أساسيين لمفهوم الأنثروبولوجيا هما: **الأنثروبولوجيا العضوية (الفيزيقية)** للإشارة إلى دراسة الجانب العضوي والحيوي للإنسان؛ **الأنثروبولوجيا الثقافية** للإشارة إلى دراسة النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان. ويدخل في نطاق الأنثروبولوجيا الثقافية مجموعة من الفروع الدراسية وهي: علم اللغويات، الإثنوغرافيا، الإثنولوجيا، علم الآثار باعتبار أن علماء الآثار هم أنثروبولوجيون متخصصون في إعادة بناء وتحليل ثقافات الماضي.

✓ وفي مقابل الأنثروبولوجيا الثقافية الذي يتداوله الأمريكيون يستخدم البريطانيون مصطلحا آخر هو مصطلح "**الأنثروبولوجيا الاجتماعية**" تهتم بدراسة البناء الاجتماعي الذي يتخذ شكل نظم اجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسي والإجراءات القانونية والعبادات وغيرها، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات؛ ورغم ذلك فالاختلاف في تحديد التسمية هو اختلاف شكلي فحسب، فكل من الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تؤولان إلى نفس المواضيع خلال عملية الدراسة فالاختلاف بين ما هو "**اجتماعي**" وما هو "**ثقافي**" ليس بينهما اختلاف كبير.

✓ بينما في فرنسا وحتى القرن التاسع عشر كان الفرنسيون يميلون أكثر إلى استخدام مصطلح الإثنولوجيا ومرافقتها الإثنوغرافيا (دراسة المجتمعات البدائية من وجهة نظر وحيدة تتمثل في تصنيف الأعراق والحفريات البشرية) للتعبير عن الجانب الثقافي وكثيرا ما يدرسونه تحت مظلة علم الاجتماع .

وعلى العموم فإن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية (الأنجلوساكسونية) جميعها تطلق على علم الأنثروبولوجيا "علم الإنسان وأعماله" بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالانجليزية على "دراسة الخصائص الجسمية للإنسان"؛ ففي بريطانيا مثلا يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية، أما في أمريكا فيرى العلماء أن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، في حين أن علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية أي العضوية.

مخطط يوضح دلالات الأنثروبولوجيا حسب المدارس المختلفة:

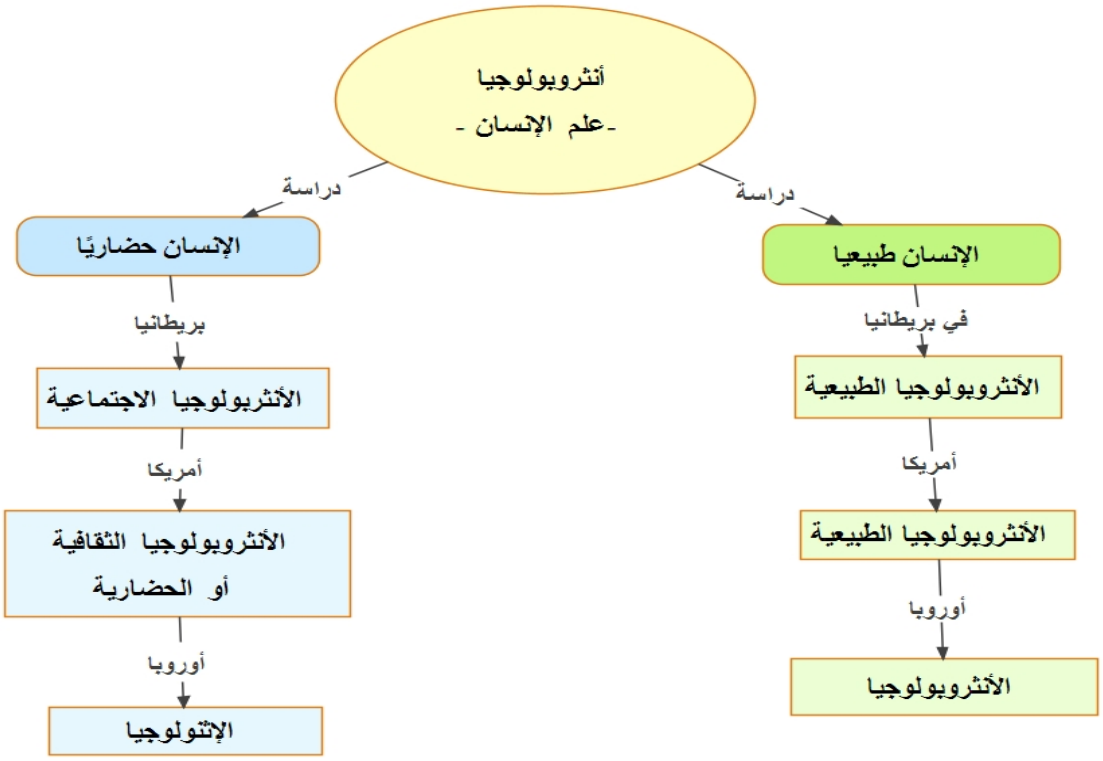

باختصار يكمن الاختلاف بين هذه المفاهيم والمصطلحات في الاختلاف في استعمالها بين المدارس الأنثروبولوجية المختلفة، حيث كان الأمريكيون يرون أن كل من الإثنوغرافيا والإثنولوجيا فرعان من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، بينما اعتمد الفرنسيون على مصطلح الإثنولوجيا للدلالة على الأنثروبولوجيا (خاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية) وكانت تحت عباءة ومظلة علم الاجتماع؛ في حين ترى النظرة المعاصرة أن كل من الإثنوغرافيا والإثنولوجيا هما مرحلتان من مراحل البحث الأنثروبولوجي، حيث تختص الإثنوغرافيا بجميع المعطيات وتكتفي بالوصف، ثم تقوم الإثنولوجيا بتنصيف وتحليل وتفسير المادة الإثنوغرافية التي تم جمعها في المرحلة الأولى، لتصل إلى النتائج والتعميمات النظرية.

3/ علم الآثار (الأركيولوجيا) Archeology:

يدرس ماضي الإنسان، ويرمي إعادة بناء صوررة عن الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ، ويعتمد علم الآثار في دراساته على البقايا التي خلفها الإنسان والتي تمثل حضارته، يدرس المعلومات عن الثقافات البشرية التي يمكن الوصول إليها من التنقيب الواعي عن المساكن القديمة والنصب والأشياء الفنية والأدوات والأسلحة وأعمال الإنسان الأخرى التي غطتها أتربة الزمن.

– وينقسم علم الآثار إلى قسمين أساسيين: علم الآثار الكلاسيكي وعلم آثار ما قبل التاريخ. يهتم الأول أساسا بدراسة الحضارات اليونانية والرومانية القديمة، بينما يتناول الثاني مجالًا أوسع من الناحية الزمنية والجغرافية، فهو يسعى لإعادة تركيب أساليب حياة الشعوب في كل أرجاء العالم منذ ظهور الإنسان وحتى حلول التاريخ المكتوب.

– فالأركيولوجيا تبحث في الماضي البعيد أو السحيق –الذي قد يصل إلى ملايين السنين– للبشر والمجتمعات الإنسانية، والتي لم يصلنا حولها معلومات من خلال المؤلفات أو المخطوطات (حين لم تكن الكتابة قد اخترعت بعد)، وذلك من أجل إعادة تشكيل صورة تقريبية تساعدنا على فهم كيف كان يعيش أجدادنا حينها، من خلال التنقيب عن آثارهم ومخلفاتهم، فأشياء مثل الفخار والمقابر والمنازل القديمة وأدوات الصيد والأواني والمعابد القديمة وغيرها من الآثار، يمكن لها أن تقدم أدلة حول كيف كان يعيش الناس (مثلا: كيف كانوا يأكلون؟ كيف كانوا يتعبدون؟ كيف كانوا يسكنون؟). وتميل المدرسة الأمريكية إلى تدريس علم الآثار كتخصص فرعي ضمن علم الأنثروبولوجيا (رفقة الأنثربولوجيا الطبيعية، الأنثروبولوجيا الثقافية واللسانيات)، بينما يدرس في أوروبا وباقي الدول كتخصص مستقل عن الأنثروبولوجيا، ولكن سواء تم اعتباره كفرع من الأنثربولوجيا أم لا، فإن علماء الأنثربولوجيا يعتمدون بشكل أساسي على علماء الآثار في دراسة ماضي الشعوب وفهم ثقافاتهم المختلفة وأصولها، ويرى البعض أن الأنثروبولوجي (الإثنولوجي) يبدأ من حيث ينتهي عالم الآثار.

4/ علم اللغويات (الألسنية) Linguistics:

– ترتبط كثيرا بعلوم وتسميات أخرى مثل علم اللغة واللسانيات أو الأنثروبولوجيا اللسانية أو الألسنية الأنثروبولوجية، حيث يستخدم علم اللغويات المنهج العلمي في دراسة اللغات، ويعتبر أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية (وفق المدرسة الأمريكية) لأن اللغة أهم عنصر من عناصر الثقافة.

– فالأنثروبولوجيا تهتم بدراسة الشعوب عبر لغتهم، فاللغة يمكن أن تخبرنا عن الشعوب الذين يتكلمونها، وهي الشيء الذي يجعلنا بشرًا، فبدونها لا يمكن للناس تبادل ونقل أفكارهم وتاريخهم ومعتقداتهم ومشاعرهم، فاللغة هي وعاء الثقافة والفكر، وفي دراستها؛ ينظر علماء اللسانيات (الأنثروبولوجيا اللسانية) إلى حاضر اللغات وماضيها، يبحثون في تاريخ تحدثها وكتابتها، البعض منهم يدرس كيف كانت اللغة عندما بدأ القدماء بتحدثها (أقدم شكل للغة)، والبعض الآخر يدرس كيف تطورت مختلف اللغات عبر الزمن، ويبحثون عن الروابط والصلات بين اللغات في مجتمعات مختلفة ومتعددة عبر أزمان متباينة، فاللغة عندها الكثير لتفصحه عن البشر. ونفس الكلام الذي قيل عن تدريس الأركيولوجيا في أمريكا وأوروبا ينطبق على اللسانيات أيضا.

ثالثا- موضوع الأنثروبولوجيا:

– إن موضوع هذا العلم هو الإنسان، بغض النظر عن الزمان أو المكان، فالأنثربولوجيا هي العلم الذي **يدرس الإنسان وأجداده وأصوله منذ أقدم العصور والأزمنة حتى يومنا هذا**، يدرس الإنسان في **كل مكان وزمان** وفي كل بقاع الأرض؛ يهتم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم، وكل ما ينتجونه سواء أكان شيئًا ماديًا أو علاقة اجتماعية أو فكرة عقلية أو ممارسة وطقسًا روحيًا.

– فتتخذ الأنثروبولوجيا من الإنسان بكل نواحيه موضوعا أساسيا لها، فإذا كان جسم الإنسان في ذاته ونشأته وتطوره هو موضوع الأنثروبولوجيا الفيزيقية، فبعض الأنثروبولوجيين يدرسون خصائص ومقاسات أجسام البشر ويصنفونها إلى سلالات معينة على أساس مقاييس وصفات جسمية محددة، ويدرسون الأصول الأولى للجنس البشري الحالي، فيبحثون عن أصول تلك العظام يصفونها ويحددون تاريخها بوسائل علمية دقيقة .

– علاقات الإنسان وسلوكه ومختلف التفاعلات التي تنتج عن اتصاله بالآخرين هي موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وقد عمد الأنثروبولوجيون الأوائل إلى دراسة المجتمعات البدائية البسيطة في تركيبتها وثقافتها فكان المجتمع البسيط والذي وصف بالبدائي هو الموضوع الأساسي الذي وجهت إليه أنظار الأنثروبولوجيين، قبل أن يتجهوا لدراسة المجتمعات صغيرة الحجم وإن كان ذلك من حيث الزمان والمكان ضمن المجتمعات المعاصرة .

- وقد اختلفت وتعددت مواضيع الأنثروبولوجيا بتعدد ميادينها وفروعها ومدارسها الفكرية، وفيما يلي نحاول أن نورد بعض أهم هذه الموضوعات:

1– <u>الثقافة</u> : وتعتبر الثقافة عنصرا أساسيا في حياة الأفراد والمجتمعات، وهي نتاج اجتماعي وملك وراثي لأفراد المجتمع كافة، وهي تشمل فيما تشمله عادات وتقاليد ومعتقدات وقيم وفنون وآداب...الخ، وبما أنها ملك مجتمعي فهي قادرة على الانتقال من جيل لآخر من خلال عمليات التثقيف والتنشئة الاجتماعية.

2/<u>البناء الاجتماعي</u>: يعتبر مفهوم البناء الاجتماعي من المفاهيم الأساسية المستخدمة في الدراسات الانثروبولوجية، بل ويعتبر البناء الاجتماعي بمثابة الموضوع الأساسي خاصة في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

<u>3/ نظام القرابة</u> :يعتبر نظام القرابة من الموضوعات الأساسية في مجال الانثروبولوجيا، فهو المجال الذي بمقتضاه يمكن التعرف على علاقات الاتصال من خلال قنوات الأسرة والزواج ومختلف القوانين التي تحكمها، لذلك يعتبر الزواج ونظام الأسرة إحدى أهم النظم الداخلة في تشكيل النظام القرابي العام.

4/ اللغة: والمعروف أن نمو الثقافة وعادة الحياة والعمل معًا لم تكن ممكنة بدون اللغة، التي تعتبر أثمن ممتلكات الإنسان على الإطلاق، فهي لا تمكن الإنسان من الاتصال المباشر مع أقرانه ومن تحقيق العمل التعاوني بسهولة أكبر فقط، بل تتيح له علاوة على ذلك إمكانية حفظ وتخزين خبراته ومعارفه ونقلها عبر الأجيال المتعاقبة.

5- الدين/ الأساطير/ النظام السياسي/ النظام الاقتصادي/.....إلخ.

ولتقريب النظر أكثر حول موضوع الأنثربولوجيا نورد ما قالته الأنثروبولوجية الأمريكية "مارغريت ميد" بقولها: نحن نصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية، والثقافية، للنوع البشري عبر الأزمان وفي سائر الأماكن، ونحلل الصفات البيولوجية والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، كما نهتم بوصف وتحليل النظم الاجتماعية والتكنولوجية، ونعنى أيضا ببحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته".

رابعًا/ الهدف من الدراسة في مجال الأنثروبولوجيا:

لكل علم من العلوم الطبيعية أو الإنسانية أهداف يسعى لتحقيقها وبلوغها، وبدورها تسعى الأنثروبولوجيا إلى تحقيق جملة من الأهداف تتمثل في:

- **فهم الطبيعة الإنسانية أو الطبيعة البشرية:** والمقارنة بين الإنسان وغير الإنسان، بين الماضي والحاضر، بين السلالات البشرية (هل هي طبيعة واحدة أم مختلفة؟).

- **تمكين الإنسان المعاصر من رؤية نفسه في المرآة من خلال دراسة تاريخ حياته ونظمه (المقارنة مع الماضي في مختلف الزوايا** : بيولوجيا، الأنظمة السياسية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية، نظم القرابة الحضارة،..الخ)، فهي هنا تشبه الجد الذي ينظر إلى حفيده ويرى فيه نفسه عندما كان صغيرًا.

- يسعى علم الإنسان إلى الإجابة على عدة أسئلة هامة: كيف سار التطور الإنساني من الناحيتين البيولوجية أو الحيوية والثقافية؟ وهل ثمة مبادئ عامة أو قوانين يخضع لها ذلك التطور؟ وما هي العلاقات الضرورية التي توجد بين الشعوب الماضية والشعوب الحالية من الناحية البيولوجية والجسمانية ومن ناحية اللغة والعادات والنظم والتقاليد؟ ولماذا يتميز الأفراد الذين يعيشون في مجتمع ما بنماذج للشخصية عن نماذج شخصية أفراد مجتمعات أخرى؟

- تفسير الكثير من مظاهر حياتنا الحالية والتي لا نستطيع فهمها إلا بالرجوع إلى دراستها في الماضي عند البدائيين، مثل: كيف يمكن تفسير لبس دبلة أو خاتم الخطوبة؟ كيف نفسر مظاهر الشعوذة والسحر التي لا زالت سائدة عند الكثير من المعاصرين؟ كيف نفسر مراسيم وعادات وتقاليد الزواج السائدة؟

– يسعى علم الإنسان إلى البحث في أصول الثقافات، من خلال البحث في أصول النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد.

– استخدمت الأنثروبولوجيا إبان نشأتها لخدمة الأغراض الاستعمارية للدول الاستعمارية الأوروبية، من خلال استغلالها في فهم الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لتسهيل السيطرة على الشعوب التي قاموا باستعمارها. (خاصة الشعوب الآسوية والإفريقية)

– تسجيل وتدوين عادات المجتمعات البدائية المعاصرة، في كتب ومجلات ومقالات وصور فوتوغرافية وأفلام وثائقية وأشرطة، وذلك لحفظ التراث الإنساني حيًّا على مر العصور المستقبلية والأجيال القادمة، وذلك قبل أن تضيع معالم تلك المجتمعات وقبل أن تختفي نتيجة الاتصالات المتناهية بينها وبين الشعوب المتحضرة. فالكثير من هذه الشعوب باتصالها منذ القرن الثامن عشر قد بدأت تفقد طابعها ومميزاتها الأصلية وقطعت مراحل متقدمة في سبيل التطور مما جعل تفقد الكثير من مميزاتها.

- بينما يلخص البعض أهداف الأنثروبولوجيا ، في مجمل النقاط التالية:

–وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفا دقيقا، وذلك عن طريق معايشة الباحث للجماعة المدروسة، وتسجيل كل ما يقوم به أفرادها من سلوكات في تعاملهم في الحياة اليومية .

– تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، وفي سياق الترتيب التطوري لعلم الإنسان " بدائي – زراعي– صناعي– معرفي– تكنولوجي"

–تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغير وعملياته بدقة علمية .وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني، وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة .

–استنتاج المؤشرات والتوقعات لاتجاه التغيير المحتمل في الظواهر الإنسانية / الحضارية التي تتم دراستها، والوصول بالتالي لإمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة .

خامسًا/ خصائص الأنثروبولوجيا وأهميتها في العصر الحالي:

الميزة الأولى التي تميز الأنثروبولوجيا عن غيرها من العلوم تتمثل في "**دراسة الجنس البشري في عمومه**" أي دراسته **دراسة شاملة** من عدة جوانب، عكس العلوم الأخرى (خاصة العلوم الإنسانية والاجتماعية) التي يهتم كل علم فيها بدراسة أحد الجوانب فقط، فمثلا يهتم علم الاقتصاد بدراسة الإنتاج وتوزيع السلع، وعلم الاجتماع يهتم بدراسة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ... إلخ، أي أن الأنثروبولوجي عليه إذا اتجه لدراسة مجتمع معين أن يحيط بكل جوانبه المادية والمعنوية، فينظر في طريقة عيش الجماعة المدروسة وطرق تفكيرها، ومختلف طقوسها وعاداتها وتقاليدها، وكيفية بناء مساكنها وطريقة لباس أفرادها، وأنماط الحكم لديها...الخ، غير أن الإحاطة بكل هذه الجوانب يتطلب من

الأنثروبولوجي أن يتناول بالدراسة مجتمعا مصغرا يتميز ببساطة تركيبته وعلاقات أفراده، لأن دراسة المجتمعات المعقدة في كليته أمر غير ممكن، لذلك نرى تعددا للعلوم الاجتماعية التي يهتم كل واحد منها بجانب واحد فقط من هذه الجوانب، هذا الذي جعل علم الإنسان يتجه في بداياته الأولى لدراسة المجتمعات البدائية التي تمثل البساطة في بنائها وعلاقاتها.

أما الميزة الثانية فتتمثل في أن الأنثروبولوجيا قد كرست نفسها منذ أمد بعيد بالتزامها **بالمنهج المقارن**، من خلال عمليتي **الوصف والمقارنة**، فالأنثروبولوجي لا يطلق تعميمات حول الطبيعة الإنسانية استنادًا إلى خبرته بالمجتمع الذي يعيش فيه وحدها، أو استنادًا إلى خبرته بمجتمعين أو ثلاث قام بدراستها، بل من خلال تتبع مسار الخط العام الذي سارت عليه البيولوجيا البشرية والسلوك البشري والأشكال الاجتماعية والثقافية البشرية، وذلك من خلال المقارنة مع أكبر عدد ممكن من المجتمعات البشرية القديمة والحديثة لتحديد أوجه الشبه والاختلاف في جميع الزوايا والمجالات التي قام بدراستها والتركيز عليها.

في حين تظهر الميزة الثالثة لهذا العلم من خلال تميزه **بالدراسات الحقلية** كبديل للمختبر التجريبي في العلوم الطبيعية، وذلك بدمج الدراسات الحقلية بالمنهج المقارن، عن طريق جمع البيانات والمعلومات حول المجتمع المدروس ثم فحصها والتأكد من صحتها ثم مقارنتها بنتائج دراسات وتقارير سابقة قام بها متخصصون في الأنثروبولوجيا.

بينما تتمثل الميزة الرابعة في تطوير الأنثروبولوجيا **لمفهوم الثقافة**، الذي يحتل أهمية بالغة في الفكر الأنثروبولوجي، فالأنثروبولوجيون اكتشفوا أن الثقافة لا تتحدد سلفا بالعوامل البيولوجية والوراثية، وهي ليست فطرية أو غريزية، بل هي محصلة ابتكار اجتماعي، كما أنها تكتسب وتنتقل من خلال الاتصال والتعلم وحسب، كما أنها محدد من محددات السلوك الاجتماعي، فالسلوك المميز لأعضاء مجتمع معين يكون مغايرًا للسلوك المميز لأعضاء المجتمعات الأخرى، وهذا الاختلاف نتاج للخبرة الثقافية المكتسبة أكثر من كونها نتاج للمورثات الجينية.